أخي محمد الرشيد . . كما عرفته

د. راشد بن عبد العزيز المبارك

يأتي المرء إلى هذه الحياة فيجدها طريقَ عابرٍ أو رحلةَ مسافرٍ، فإذا أعطاها مزيداً من تأمل تراءى له ألا وجود لها على وجه من وجوه الحقيقة، إذ لا بقاء لأجزائها؛ فحياة الإنسان هي عمره وعمره، ليس سوى وحدات زمنية، أي: مجموعة من الآنات المتوالية (أي مجموعة الآن)، التي نجد لها اسماً دون أن يكون لها وجود حقيقي، فهذه الأجزاء ليست سوى سلسلة متصلة من (الآنات)، وهذه المفردة من مفردات اللغة (الآن) لا مدلول واقعي لمعناها، إذ إنه بمجرد لفظ الكلمة يكون مدلولها صار ماضياً ذهب، ولم يعُد حاضراً يُعاش، فضلاً عن أن يكون مستقبلاً ينتظر، فهي أي الحياة سلسلة متصلة من لحظات سريعة التلاشي لا يُشعرنا بها إلا توالي تسلسلها. على أن هذه السلسلة لا تخلو عند فئة من الناس من محطات تستوقف العابر وتشُدُّ المسافر، لما يجد فيها من بهجة الحياة ومن متعتها، فهي في صحراء الحياة الإنسانية كالخمائل في صحراء الأرض؛ يفيء إليها المسافر ليجد فيها وقاية من وهج الشمس بالظل، وما يطفئ لذع الرمضاء بالماء، ويُندّي السموم بأنفاس الشجر، وأنضر هذه الخمائل وأبقاها تذكراً وتصوراً علاقة حميمة لأخ كريم وصديق حميم، وأبقى هذه العلاقات وأقواها ما تزول معه الحواجز، فلا يكون بينك وبين من تصادق حاجز عن أمر أو غطاء على سر مما عناه مسكين الدارمي بقوله:

وإخوان صدق لست مطلع بعضهم ... على سِرٍّ بعض غيرَ أني جماعُها

يظلون شتى في البِلاد وسِرُّهم ... لدى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصداعُها

لكل امرئ شعبٌ من القلب فارغ ... وموضعُ نجوى لا يُرام اطلاعُها

أستاذ الكيمياء في جامعة الملك سعود سابقاً.

ولعل من ذلك الجانب ما جاء في الأثر: أن المؤمن مرآة أخيه.

والمعرفة بالآخر نوعان: أحدهما أن تلقى من لا تعرف فتحس أنك تحتاج إلى وقت قد يطول أو يقصر لترتادَ أبعاده وتعرفَ منه زوايا أو خبايا، لا تكشفها نظرة أولى ولا لقاء غير متكرر، فتحتاج من أجل ذلك لمعرفة ذلك الفرد وصحبته إذا تمت (إلى معرفة منشئه)، يقابل هذه المعرفة معرفة أخرى، وهو أن ترى الفرد، فتشعر للوهلة الأولى أنك تعرفه منذ زمن، وألا حواجز بينك وبينه تُشعرك بالتكلف أو التعسف، فتذهب نفسك معه على سجيتها؛ لأنك وجدت مقابلاً لا يحيط نفسه بأسوار؛ فتكون هذه المعرفة في هذه الحال (معرفة كاشفة) بمعنى أنه لم يكن بينك وبين هذا الفرد سوى ستارة أزيحت، فبدت العلاقة مكتملة البناء تامة الخلق.

كانت معرفتي بمعالي الأخ د. محمد منذ السنة الأولى من سنوات عملي بهيئة التدريس في جامعة الملك سعود، وقد سبقني إليها بعام أو نحوه، فشعرت منذ لقائنا أو لقاءاتنا الأولى بتلك المعرفة الكاشفة التي لا تحيط ذات المكتشف بأسوار، واسترحت منه وبه إلى تلك السجية السمحة، التي لا تجد فيها انفصالاً بين لسانها ووجدانها، بل إنها تشعرك في يسر بقصر المسافة بين اللسان والوجدان، أو بين التفكير والتعبير، وتمرُّ الأيام فتزيد هذه العلاقة توثقاً وتجذراً، ثم تجمعنا زمالة عمل ورحلات سفر، فعرفت منه في عمله ذلك المخلص له المقبل عليه إقبال والهة على حبيبها، وقد كنت أعجب منه وأعجب له من القدرة على مواصلة عمله ساعات طوالاً دون ملل أو كلل، ولا أجد تفسير ذلك إلا في قول ذلك البدوي:

على مناحي القلب يمشنَّ القدام..

يصاحب ذلك قدرة مماثلة على تحويل من يحيط به في العمل إلى إخوان إلفة وشركاء مشروع. وصحبته في سفر، بل عدة أسفار فوجدته في سفره، كما هو في إقامته، من يؤنسك منه صدق الإلفة وزوال الكلفة، ومبادلة البث فيما تحزن منه وفيما تُسرُّ به، كما جمعنا عمل مشترك في كثير من المجالات، فلم يباعد بيننا اختلافٌ على غاية أو

تعارضٌ في هدف، وإذا كنا نختلف في الرأي أحياناً فإننا لم نختلف في غاية من الغايات، ثـم يتولىّ أخـي محمد منصباً كبيراً، أو يُبتلى بمسؤولية كبيرة، فلم تصرفه كثرة ما وُجِّه إليه من نبال قد تصد كثيرين عن التفرغ إلى العمل إلى دفع النبال وردِّ النصال من باب قول بدوي الجبل:

أرد وقع الظّبا عـن مهجتي بيـدٍ وتمسح الدمَ من نزف الجراح يدُ

بل لقد ترك – مع ما أصابه – في مجال عمله لمسات، ونقش في توجهه بصماتٍ، لا يخطئها متتبعٌ منصف أو باحثٌ متعفف، هذا ما عرفه زميل له، عرفه فألفه، لم تجمعهما شراكة مال أو رباط منفعة، ولكن ربط بينهما رباط أقوى هو رباط أخلاق.

وبعـد؛ فهذه كلمات اختلطت فيها الفلسفة بـالأدب، والعقل بالقلب، والفكر بالشعور، وكلهـا دقيقـة في وصف الحقيقة، لكن بإجمـال في غير تفصيل. أمـا إن شئت أن أوضح بالمثال بعض ما تقدم، فأقول:

عرفـت أخـي الدكتور محمد عـام ١٣٩٤هـ عندمـا كان عميداً لكليـة التربية، وكنت آنـذاك أحد أعضاء هيئة التدريس في كلية العلوم، والتقينا في أول مؤتمر تعقده الجامعة بموافقـة المقام السامي باسـم «رسالة الجامعـة»، واشتركت فيه بالإضافـة إلى كليات الجامعة قطاعات حكومية أخرى، وقطاعات خاصة، نوقشت فيه رسالة الجامعة، وما هو المطلوب والمؤمل منها.

وضمتنـي وإياه بعد ذلـك عضوية في هيئة استشارية تلتقـي أسبوعياً، أسسها معالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمه الله عندما كان وزيراً للتعليم العالي.

ثـم التقينا في لجنة معادلـة الشهادات الجامعية، وسافرنا معـاً إلى عدد من البلاد منهـا: إستراليا، وفنلندا، والفلبيـن، وإندونيسيا، وبريطانيا... زرنـا جامعاتها، واطلعنا علـى أنظمة التعليم في تلـك الجامعات، ومستوى التعليم فيهـا، وجدارتها على المستوى العالمي..

ثـم التقينـا بعد ذلـك في لجنـة المصالحة التي سعـت لإيقاف الحـرب بين العراق وإيران، وبدأت مساعيها في رمضان ١٤٠٤هـ (يونيو ١٩٨٤م)، وقد كانت محاولة قام بها بعض المفكرين والعلماء المسلمين، الذين لا تربطهم روابط رسمية بأي دولة، ولا يتولون مناصـب حكومية في أي مكان. وقد جرت تمهيداً للقيام بمحاولة الصلح عدة لقاءات في الرياضـ، وجدة، والقاهـرة، وكراتشي، واسلام آباد، وكوالالمبـور، واستامبول، وأنقرة، والجزائـر، وأبوظبي، والكويت، والدوحة، والبحرين، ولندن، وباريس، وروما.. ولم تحقق هذه المحاولة النتائج المرجوة منها مع الأسف.

هذه إضاءات من روح إلى روح، وعقل على عقل، حسبها الصدقُ البعيد عن المجاملة، والصفاءُ الذي تُمليه الحقيقة ولا يُنقّيه الإخاء أو الوفاء.